مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٤: ١٤–١٦؛ ٥:١–٦)

يا إخوةُ، اذ لنا رئيسُ كهنةٍ عظيمٌ قد اجتازَ السمواتِ، يسوعُ ابنُ اللهِ، فَلْنَتَمَسَّكْ بالإعترافِ* لأن ليسَ لنا رئيسُ كهنةٍ غيرَ قادرٍ ان يرْثِيَ لأَوهانِنا بل مُجرَّبٌ في كلّ شيءٍ مثلَنا ما خلا الخطيئةَ* فلنُقبِلْ اذًا بثقةٍ إلى عرشِ النعمةِ لننالَ رحمةً ونَجدَ نعمةً للإغاثةِ في أَوانِها* فإنَّ كُلَّ رئيسِ كهنةٍ مُتَّخَذٍ منَ الناسِ يُقامُ لأجلِ الناسِ فيما هو للّهِ ليُقرِّبَ تقادِمَ وذبائحَ عن الخطايا في إمكانه ان يُشفِقَ على الذين يجهلونَ ويَضِلُّون لكونِهِ هو أيضًا متلبِّسًا بالضُّعفِ* ولهذا يجبُ عليه أن يقرِّبَ عن الخطايا لأجلِ نفسِهِ كما يقرِّبُ لأجلِ الشعبِ* وليسَ أحدٌ يأخُذُ لنفسِهِ الكرامةَ بل مَن دعاهُ اللّهُ كما دَعا هرون* كذلكَ المسيحُ لم يُمجِّدْ نفسَهُ

أحد الصليب

«لصورتك الطاهرة نسجد، أيها الصالح، طالبين مغفرة خطايانا، أيّها المسيح الإله، لأنّك سررت أن ترتفع بالجسد على الصليب لتخلّص الذين جبلتهم من عبوديّة العدوّ». بهذا النشيد افتتحنا موسم الصوم، في الأحد الأول من آحاد الصوم الكبير. وها نحن اليوم، في منتصف الموسم ، نعيّد، صراحةً، للصليب المحيي. ما علاقة صورة المسيح، أو أيقونته، بالصليب؟ وما هو الأساس اللاهوتي الذي بالاستناد إليه ربطت الترنيمة، التي أنشدناها قبل أسبوعين، فكرة ظهور يسوع في الأيقونة بارتفاعه على الصليب الذي نحتفل به اليوم؟

يشكّل تجسّد الكلمة، أي ظهوره بالجسد، المرتكز اللاهوتيّ للتصوير في الكنيسة. فالآباء المدافعون عن الأيقونات المقدسة، ولا سيّما القديس يوحنا الدمشقي (٦٧٥ – ٧٤٩)، قالوا بأنّ وصيّة تحريم الصور التي أُعطيت، في العهد القديم، للشعب اليهوديّ، وذلك خوفاً من انجرافه وراء الوثنيّة المتفشيّة في حوض البحر الأبيض المتوسط، إنّما بطلت بفعل اتخاذ ابن الله جسداً بشريًّا، أي صيرورته مرئياً. تأنسنُ ابن الله غير المرئيّ أصلاً هو، إذاً، ما يتيح لنا تصويره. فإذا سجدنا لصورة ابن الله الطاهرة، كما ورد في نشيد أحد الأرثوذكسية، لا نسجد للخشب واللون، بل للإله المتجسّد الذي تمثّله هذه الصورة.

من جهة أُخرى، يعلّمنا العهد الجديد أنّ ابن الله، من حيث وجوده الإلهيّ قبل تجسّده، هو «صورة الله»، وذلك قبل اتّخاذه في التجسّد «صورة» أخرى هي صورة العبد: «فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً، الذي إذ كان في صورة اللهِ لم يحسِب خلسةً أن يكون معادلاً للهِ، لكنّه أخلى نفسه آخذاً صورةَ عبدٍ، صائراً في شِبه الناس، وإذ وُجد في الهيئةِ كإنسانٍ وضعَ نفسَهُ وأطاعَ حتى الموتِ، موتِ الصليبِ» (في ٢: ٥–٨). والحقّ أنّ التعليم اللاهوتيّ الذي صيغ في المجمع المسكونيّ الرابع المنعقد في خلقيدونية (٤٥١)، عبر تأكيده أنّ الطبيعتين الإلهيّة والبشريّة في شخص يسوع من دون انفصام، إنّما يشير، بمعنى ما، إلى تلازم هاتين الصورتين، صورة الله وصورة العبد، في وجود المسيح البشريّ. فالألوهة الساكنة في يسوع لا تظهر للأعين البشريّة إلاّ عبر جسد

العدد ٢٠٠٧/١٠
الأحد ١١ آذار
الأحد الثالث من الصوم
(أحد الصليب الكريم المحيي)
تذكار أبينا الجليل في القديسين صفرونيوس رئيس أساقفة أورشليم
اللحن السادس
إنجيل السَحَرْ السـ

ليصيرَ رئيسَ كهنةٍ بل الذي قالَ لهُ أنتَ ابني وأنا اليومَ ولدتُكَ. كما يقولُ في موضعٍ آخرَ أنتَ كاهنٌ إلى الأبدِ على رُتبَةِ مَلكيصادَق.

الإنجيل

(مرقس ٨: ٣٤–٣٨؛ ٩: ١)

قال الربُّ من أراد أن يتبَعَني فليكفُرْ بنفسِهِ ويحمِلْ صليبَهُ ويتبعني لأنَّ مَن أراد أن يخلِّصَ نفسَهُ يُهلكُها ومَن أهلك نفسَهُ من أجلي ومن أجل الإنجيل يخلّصُها* فإنَّهُ ماذا ينتفعُ الانسانُ لو ربحَ العالَمَ كُلَّهُ وخَسِرَ نفسَهُ* أم ماذا يُعطي الانسانُ فِداءً عن نفسهِ* لانَّ مَن يستحي بي وبكلامي في هذا الجيلِ الفاسقِ الخاطئ يستحي بهِ ابنُ البشر متى أتى في مجدِ أبيهِ مع الملائكةِ القديسين* وقال لهم الحقَّ أقول لكم إنَّ قومًا من القائمين ههنا لا يذوقون الموت حتَّى يَرَوْا ملكوتَ اللّهِ قد أتى بقوَّةٍ.

تأمل

من أراد أن يعيش متحداً بالمسيح عليه أن يهتم اهتماماً صادقاً بنفسه، أن ينجذب بالمسيح وليس بالأشياء العالمية. عندما سمع الرسول بطرس دعوة المخلّص. بهذا المعنى كتب الإنجيليّ الرابع، بعد قوله «والكلمة صار جسداً» (يو ١:١٤)، أنّ الله لم يره أحد قطّ وأنّ وحده الإبن الساكن في حضن الله هو خبَّر، أي أنبأ عن أبيه (يو ١: ١٨). وبهذا المعنى، شدّد التراث الأرثوذكسي على أن خبرة التلاميذ الناظرين إلى جسد يسوع المنير، على جبل التجلّي، كانت تألّهاً حقيقياً، أي دخولاً في سرّ الألوهة بفضل حضورها في جسد يسوع. فلولا تجسّد الكلمة، أي اتّخاذه صورة العبد، على تعبير الرسول، ما كان في إمكان البشر أن يصيروا شركاء الطبيعة الإلهيّة (٢بط ١:٤). إذاً سُكنى الألوهة في الجسد البشريّ، هو ما يبرّر لا تصوير الأيقونات فحسب، بل سجودنا لها وتقبيلها، بوصفها مكاناً للحضور الإلهيّ.

ولكن ما علاقة هذا كلّه بالصليب الذي نعيّد له اليوم؟ هذه العلاقة يُستدل عليها من النصّ البولسيّ الذي اقتبسناه آنفاً. فاتّخاذ ابن الله صورة العبد كانت غايته القصوى أن يطيع حتى الموت، موت الصليب. ولعلّ هذا هو ما يجعل أيقونة الميلاد، بحسب تراث الكنيسة الأرثوذكسية، تصوّر الطفل ملفوفاً بأقمطة هي إيّاها لفائف الكتّان التي كان اليهود يلفّون بها أمواتهم. ثمّة ارتباط عضوي، إذاً، بين سرّي التجسّد والموت على الصليب. فابن الله لم يصر إنساناً ليشارك البشر أفراحهم وأتراحهم فحسب، بل أيضاً ليلج إلى صميم مأساتهم الوجوديّة التي الموت أبلغ تعبير عنها. بذا، يصبح الصليب، الذي نتوقف عنده في الأحد الثالث من الصوم الكبير لنتعزّى ونتشدّد ونعبّ زاداً لمتابعة مسيرة الإمساك، يصبح الموضع الأكثف لظهور «صورة الله» التي يحملها المصلوب في ذاته. فعلى الصليب كشف الله أنّه ليس الإله الجبّار الذي يقهر البشر، بل الإله المحبّ الذي يوحّد ذاته بهم، حتى إنّه يموت موتهم. وعلى الصليب كشف الله أنّ صورته بين البشر هي صورة الأذلاّء والمظلومين والمضطهدين والمسحوقين، لأنّ ابن الله كان في موته على الخشبة ذليلاً ومظلوماً ومضطهَداً ومسحوقاً. ومن الصليب تعلّمنا أنّ حبّ الله للبشر المتفجّر على الخشبة – ألم يحترم ابن الله حريّة البشر في أن يسمّروه، ثم غفر لهم جهلهم – هو إيّاه هذا الحبّ الذي يشدّ أقانيم الثالوث الواحد إلى الآخر: «كما أحبَّني الآبُ، كذلك أحببتُكم أنا» (يو ١٥:٩).

المسيح المسمّر على الصليب، إذاً، هو صورة الله، أي أنّ حقيقة الله، على قدر ما يمكننا اختبارها، تقوم في المحبّة. فإذا كانت هذه المحبّة منهزمةً في عيون البعض، إذ يشكّل موت يسوع على الصليب «هزيمةً» في رأيهم، فإنّ الله يرى فيها انتصاره الأعظم، انتصاره بالمحبّة على الشرّ والظلم، إذ وحدها المحبّة قادرة على أن تفضح الشرّ والظلم وأن تصير، بذلك، دينونةً لهما. فيسوع المذبوح على الصليب يفضح، بصمته وسلاميّته، خبث من تآمروا عليه وعتوّهم واغترابهم عن الله. هذا، طبعاً، يخالف منطق أهل الدنيا. فهؤلاء لا يفقهون كيف يكشف الله ذاته ويحقّق مقاصده بالصليب. من هنا قول الرسول بولس إنّ كلمة الصليب هي عند الهالكين جهالة، أمّا عند المخلّصين فهي قوّة الله (١كور ١: ١٨). قوّة الله قائمة في الضعف، في يسوع الضعيف والمتروك على الصليب، لأنّ وحده «إخلاء الذات» يجعل الإنسان شفّافاً كلّياً، فتظهر محبّة الله عبره، ومحبّة الله هي قوّته.

ينتصب الصليب في وسط الصوم الكبير صورةً للحبّ الإلهيّ ودعوةً للبشر أن يأتي صومهم انخراطاً في هذا الحبّ. فإذا كانوا قد صاموا، إلى اليوم، من باب الشكل، هم مطالبون

المخلّص لم يهتم بالأمور الدنيوية. وكل مسيحي وإن لم تكن له دعوة بطرس الخاصة، مدعوٌ بالنعمة المستمرة التي تعطى للنفس بواسطة الأسرار ليحيا بالمسيح. يتكلّم الرسول بولس عن هذه الدعوة قائلاً: «أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب» (غلا ٤:٦). يجب أن نعتبر كل الأشياء الأخرى في المرتبة الدنيا لنتمكن من أن نتبع المسيح. «ليس من المستحب أن نهمل كلام الله لنخدم الموائد» (أعمال ٦:٢) لأنه ما قيمة الخيرات المادية الضرورية بالنسبة لخدمة الله؟ ثم ان من يخدم الله بصدق سيجد الخيرات المادية الضرورية، لأن الله هو النبع والقائد لكل خير. «اطلبوا ملكوت الله وبره وكل شيء يزاد لكم» (متى ٦:٣٣). ان الله الذي لا يكذب قد أعطانا هذا الوعد.

يتكلّم المخلّص كثيراً بقصد حمايتنا من الاهتمامات الدنيوية ويقول بأنه لن يتركنا بل سيهتم بنا وبحياتنا. انه يشدّد على هذه الحقيقة لأننا مشرفون على خسارة اليوم بانتزاع هذا الصوم الكاذب من ذواتهم والتحوّل إلى الصوم الحقيقيّ، هذا المستمدّ من الصليب. وإذا كانوا يعيشون في المحبّة، التي لا صوم من دونها، فدعوتهم تكثيف هذه المحبة وتطهيرها من شوائبها، فيأتي صومهم لائقاً بالقيامة الآتية، وهي ختم محبّة الله التي ظهرت مرّة وإلى الأبد، يوم عُلّق يسوع ابن مريم الذي من الناصرة على خشبة.

إشارة الصليب

قبل عشرين قرناً كان الصليب أداةً للعقاب بالموت الشنيع، وكان الحكم بالصلب يصدره الرومان كعقاب على الجرائم الكبرى. أما اليوم فيسود الصليب على مجمل حياة المؤمنين المسيحيين وحياة الكنيسة كأداة للخلاص، للفرح، للتقديس وللنعمة. هذا ما يوضحه القديس يوحنا الذهبي الفم إذ يقول: «الصليب الذي كان لعنةً ورمزاً شنيعاً لأسوأ عقوبة، أصبح الآن مرغوباً فيه ومحبوباً». إننا نرى الصليب في كل مكان، على المائدة المقدسة، على الأيقونسطاس، على قبة الكنيسة، في المنازل، في المحال، في الطرقات، في السيارات، في البواخر، محمولاً من المؤمنين... إن هذا التعلّق بالصليب يعود إلى حين عُلّق عليه إلهنا وربنا يسوع المسيح ومات من أجل خلاص العالم. لقد أخذ الصليب قوته من المسيح الذي صُلب عليه والذي صالحنا مع الآب السماوي بعد أن كنا قد انفصلنا عنه بخديعة الشيطان.

إذاً الكنيسة لا تكرّم الصليب بسبب شكله وإلاّ لكانت هذه عبادة أوثان، لكنها تكرّم الصليب كرمز لذبيحة المسيح العظيمة والتي نتج عنها الفرح والتقديس وخلاص الإنسان، ولأنه أصبح علامة المسيح: «حينئذٍ تظهرُ علامةُ ابنِ الإنسانِ في السماءِ» (مت٢٤:٣٠). فالمؤمن عندما يرى شكل الصليب أو عندما يرسم إشارة الصليب ويسجد له، يرى بعينيه الروحيتين ويسجد للمسيح المصلوب عليه. يقول القديس إيرونيموس: «لا نقبل الصليب كإله، بل لنظهر خضوعنا الروحي الكامل للمصلوب».

يعود تكريم إشارة الصليب إلى بداية انتشار المسيحية. يُعلن بولس الرسول: «وأمَّا من جهتي فحاشا لي أن أفتخرَ إلاَّ بصليبِ ربِّنا يسوعَ المسيحِ الذي به قد صُلب العالمُ لي وأنا للعالمِ» (غلا ٦:١٤). أما القديس بطرس الرسول الذي حُكم عليه بالموت على الصليب مثل السيّد، فبما أنه كان يحترم الصليب كثيراً قال لجلاّديه: «لست مستحقاً أن أُصلَب منتصباً مثل المسيح، ذاك صُلب هكذا ليرى الأرض بما أنه كان سيذهب إلى الجحيم ليُحرّر النفوس المسجونة هناك. أما أنا فاصلبوني رأسي إلى الأسفل، لكي أعاين السماء، حيث يُفترض أن أذهب».

نذكر ان قديسين كثيرين حققوا العجائب والمعجزات بواسطة الصليب الكريم. على سبيل المثال فقد شفى القديس يوحنا اللاهوتي الذي نعيّد له في ٢٦ أيلول، كاهناً وثنياً مفلوجاً عبر ختمه بإشارة الصليب. كذلك القديس أنطونيوس الكبير الذي نعيِّد له في ١٧ كانون الثاني، فقد تمكّن من طرد شياطين بواسطة استدعائه للرب ورسمه إشارة الصليب. وكان القديس تلالاوس الذي نعيِّد له في ٢٠ أيار يشفي المرضى بإشارة الصليب. وكلنا يذكر قصة ظهور الصليب للقديس قسطنطين الذي انتصر في الرب بقوَّة الصليب.

بعد كل ما رأيناه عن الصليب وقوَّته، قد يسأل البعض لماذا لا نشعر نحن ببركات إشارة الصليب

الأمور السامية لسبب اهتمامنا الدنيوي. إذا كان الاهتمام الدنيوي خطراً فما قولك بالاهتمام المرفوق بالعذاب؟ ان هذه الحالة من النزاع الحياتي تقود الإنسان إلى منحدر الضلال. من ترك نفسه ليكون ألعوبة بيد القدر والأهواء الحياتية يعاني دواراً وانهياراً نفسياً وتضعضعاً ولا يتردد عن فعل كل ما هو قبيح وخاطئ ولا يعود يقوم بأي عمل، ويصبح عبداً تحت أقدام الأهواء، وعندما توجد النفس في مثل هذه الحالة المحزنة تملؤها جراح الخطيئة فتنقاد إلى الموت الروحي، إلى الابتعاد الكلّي عن الله. إلى أين يستطيع الحزن أن يقود الذي يغذيه الاهتمام بالأمور الدنيوية؟ «ان حزن هذا العالم يعمل من أجل الموت» (٢ قور ٧:١٠) فمن أراد أن يحيا الحياة الروحية عليه ألاّ يطرد الحزن فقط بل كل اهتمام وقلق، هذا العدو اللدود للحياة المسيحية. فعلى من يريد أن يحيا الحياة في المسيح أن يحصن نفسه ضد كل الاهتمامات الكافرة.

القديس نقولا كاباسيلاس

ونِعمها؟ الواقع هو أننا ربما لا نستخدم إشارة الصليب بشكل صحيح كما يجب وكما يريد الله والكنيسة. فربما إيماننا ضعيف، أو لسنا متواضعين، أو لأن قلوبنا قاسية ولأننا خطأة ولا نتوب، أو لأننا لا نصلّب بشكل صحيح. في هذه النقطة الأخيرة كلنا علينا مسؤولية، البعض أقل والبعض أكثر وذلك بسبب إتمامنا إشارة الصليب على جسمنا بطريقة قد تكون خالية من الانتباه أو ميكانيكية أو حتى غير وقورة.

البعض يحرّكون يدهم باستعجال فوق صدرهم فقط أو في الهواء دون أن يسندوها إلى جسمهم، البعض الآخر يرسمون شكل مثلث أو علامة X، وآخرون يبدون كأنهم يعزفون على آلة موسيقية. لا بد هنا أن نورد كلمة للقديس يوحنا الذهبي الفم التي قد تبدو قاسية بعض الشيء حيث يقول أن الشيطان يحرّك يد المسيحيين العديمي الانتباه لكي يهزأ من إشارة الصليب المكرّم ولكي يدفع بهؤلاء إلى الجحيم.

يقع مسيحيون آخرون في خطأ آخر حيث يأتون إلى الكنيسة وينتصبون في أماكن ظاهرة للجميع ويشرعون بالقيام بسجدات أو إشارة الصليب بشكل كثيف وبدون تمييز وبأسلوب هزلي لكي يلفتوا انتباه الناس. هناك فئة ثالثة من المسيحيين الذين يرفضون كلياً إتمام إشارة الصليب، هؤلاء يخجلون أن يعترفوا بإيمانهم بالمسيح ويصليبه وكما يقول يوحنا الإنجيلي: «أحبُّوا مجدَ الناسِ أكثرَ من مجدِ اللهِ» (١٢: ٤٣)، كذلك نذكرهم بقول السيد: «كلُّ من يعترفُ بي قدَّامَ الناسِ أعترفُ أنا أيضاً به قدَّامَ أبي الذي في السموات، ولكن من ينكرني قدَّامَ الناسِ أنكِرُهُ أنا أيضاً قدَّامَ أبي الذي في السموات» (متى ١٠:٣٢–٣٣).

يجب على المؤمن أن يتمِّم إشارة الصليب بتواتر ولكن بوقار، قبل البدء بأي عمل وعند الإنتهاء، عندما يداهمه خطر ما، عندما يريد أن يشكر ربه... ولكي يصبح الصليب حامياً لنا يجب أن نتمِّم إشارة الصليب كما تعلّمنا الكنيسة.

بداية نضم الأصابع الأولى الثلاثة من اليد اليمين معترفين بإله واحد في ثلاثة أقانيم متساوية في الجوهر ومتحدة مع بعضها بدون انفصال أو انقسام. الإصبعان الآخران نضعهما في راحة اليد، هذان يرمزان إلى طبيعتي المسيح الإلهية والإنسانية اللتين اتحدتا في بطن العذراء الذي ترمز إليه راحة اليد. بهذه الطريقة نقوم باعتراف رمزي بإيماننا الذي يرتكز على عقيدتي الثالوث والخريستولوجيا أي اللاهوت المتعلّق بالمسيح. عندما نضع اليد على الرأس نعترف أننا نحب الله من كل ذهننا ونكرّس له كل أفكارنا، وبعدها ننزل اليد إلى البطن معترفين رمزياً أننا نقدّم للرب كل رغباتنا ومشاعرنا، وفي الأخير ننقل يدنا من الكتف اليمين إلى الكتف اليسار معترفين أن كل نشاطنا وغيرتنا يخصان الله.

لقد أيقنّا من كل ما سبق أن إشارة الصليب تحتوي على كل الأحداث الخلاصية التي دبّرتها محبة الله غير المحدودة للإنسان، ولهذا السبب الصليب هو إشارة تخلّص، تحيي وتقدّس. فلنستخدم إذاً إشارة الصليب قدر ما نستطيع بتواتر لنقدّس بها كل طيّة من حياتنا اليومية والروحية.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb